الفصل الثاني

إنْ كانَ قال ، فقد صدق ..

. . وتمضى الأيام طاوية أشواق الذين يؤمنون أو يُحسّون أنهم على موعد مع الغيب عظيم .

ويصبر أبو بكر حتى يأتى الله بأمره .

ويُقبل على شأنه وتجارته ، وإذْ يَحين أوانُ رحلة جديدة إلى الشام ، يشدُّ رحاله مع صَحْب له من التجار . وتيمِّم القافلة وجهها شطر البلاد البعيدة ساعية وراء الرزق والربح الحلال .

وفى الشام يجد أبو بكر « مُناخاً روحيًّا » شبيهاً بمناخ قومه . .

أديان شتَّى ، وناس تائهون ، وقِلَّة مؤمنة تُقلِّب وجوهها فى السماء راجية منها اليقين ، ومُرسلة أطرافها فى آفاق الأرض ، وكأنها تريد أن ترى من أى أقطارها سَيُهِلُّ النذير المنتظر . .

وأبو بكر فى الشام مِثلُه فى مكة . لا يكاد يُنجز عمله مع أهل مهنته من التجار حتى يُبادر ويُسارع إلى نَفرٍ من الأحبار والرهبان . تعرَّف إليهم خلال رحلاته ، وأنِسَ منهم عُزوفهم عما عليه الناس من باطل ووهم .

ورضِيَ منهم بحثِّهم عن الحق ، وانتظارهم لِبُشْرى الله المقبلة .

فَمِن هؤلاء فى الشام ، كان يسمع نفس اللَّحن العذب المبشر بمقدم رسول الله ، والذى سمعه بمكة من ورقة بن نوفل وإخوانه . .

لقد أخذ هذه المرة يتردد على هذا النفر الصالح من رهبان الشام أكثر من أية مرة سالفة .

* * *

ولا بد أن قلبه آنئذ كان يجيش أكثر من ذى قبل بمشاعر الحنين النامى إلى الفجر القريب . .

إن أبا بكر لينتظر الرسول المقبل فى لهفة غَلاَّبة ، لا لأنه سيهتدى به وحده إلى الحق . . بل لأن الناس جميعاً سيهتدون به من ضَلالة ، ويُفيقون به من غفلة .

وأبو بكر الأوّاب ، المحِبُّ الودود ، يودُّ الحياة الصالحة لكل حىّ .

وفؤاده الذكى ينطوى على رغبة غامرة فى أن يُسدى إلى الناس الخير الذى يحتاجونه . . لا الخير الذى يملكه . . ! !

وإنه إذ يملك المال والجاه ، يُنفق منهما بغير حساب .

بَيْدَ أنَّ الناس لا يحتاجون إلى المال وحده ، ولا إلى الجاه معه .

إنهما مع ذلك ، بل قبل ذلك يحتاجون إلى الهُدى والنور .

وهو لا يملك من الهُدى واليقين ما يقدمه للناس . . صحيح أن معه مَكارمَ الأخلاق ، وإنه فيها وبها لمَثَلٌ أعلى وقدوة سامقة . .

لكنَّ الهدى الأعظم لا يزال ينقصه ، وينقُصُ الناس .

التعرف إلى الحقيقة . . إلى السرِّ الأكبر الذى يحيط بالحياة ،

ويُحرِّك الكون . . وبكلمة واحدة – الله . . ! !

فأين إلى الله الطريق . . ؟ ؟

وتزدهر خواطره وتتألق . .

إن فى الأرض كثيرين يتملكهُم ذات الحنين إلى معرفة الله الحق .

فى الشام ، وفى مكة ، وفى غيرهما من بلاد الله الواسعة .

كثيرون يؤرقهم الشوق إلى أن يعرفوا .

كثيرون تَهْوِى أفئدتهم مطالع الضوء ، منتظرين أن تُشرِق عليهم فجأة كلمة الله .

أَويتخلَّى الله عن عباده هؤلاء . . ؟ ؟

أيتركهم حيارى تائهين ، وقد بسطوا إليه سبحانه رجاءهم . . ؟

أبداً . .

وإن الله لأَرحَمُ من أن يغيب عن الذين يبتهلون إليه ليعرفوه .

سيجىء الهُدى إذن ، لا محَالة . .

وسَيطلعُ على الناس فى فجر قريب ، من يقول لهم – صادقاً – « إنى رسول الله إليكم » . . .

ولكن من أين يا تُرى يجىء . . ؟ !

إن الذين عندهم عِلم من الكتاب ، فى الشام وفى مكة ، لَيكادون يُجمعون على أنه سَيُهِلُّ على الدنيا من هُناك . . من حيث رفع إبراهيم القواعد من البيت . .

من مكة . . وطن الكعبة العظيمة . ! !

ولكنَّ مكة تموج بعبَدَةِ الأصنام . . بالعاكفين على الميْسر والأنصاب والأزلام ، وكلٌ رجس من عَمل الشيطان . .

أفلا يجد الله فى أرضه الواسعة سوى هؤلاء ليختار من بينهم رسوله . . ؟ ؟

ولكنْ أىُّ بأس فى هذا . . ؟ ؟

وهل يدخل الأطباءُ إلا بيوت المرضَى . . ؟ ! !

وحيث تَقضى الوثنية الضّاريةُ على كل أمل فى التوحيد ، ألاَ تكونُ الحكمة عظيمة . . فى أن يَخرج من المكان نفسه من يرفع راية التوحيد . . ؟ ؟ !

ثم إن فى مكة قوماً على الرغم من وثنيتهم يحملون تُراثاً أخلاقيًّا نادر المثال . .

* فمَنْ مثلهم يَحمى الذمار ، ويكرم الضيف ، وينصر المظلوم ، ويُعين على نوائب الدهر . . ؟ ؟

* مَن سِواهم من الأمم ، لهم أشهر حُرُم ، تتحول السيوف فيها إلى أغصان . . ؟ ؟

* مَن مثلهم يُوقدون النيران شاهقة عالية ، لِتدلَّ الضيف وتُناديه . . . ؟ ؟

* مَن مثلهم يقول السيد فيهم لعبده :

– « إن تجلُبَنْ ضيفاً ، فأنت حُرٌّ » . . . ! !

من أُوتِىَ من الحكمة ما أُوتوا . . ؟ ؟

هؤلاء الذين أنجبوا امرأ القيس ، وزهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ، وطَرفة بن العبد ، وأمية بن أبى الصلت ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وقس بن ساعدة ، وسَحبان وائل . . ؟ ؟

ويستطرد أبوبكر مع خواطره . .

وتتراءى له أبهى فضائل قومه ومزايا أمته . .

أهناك قوم وُهبوا من صدق الفِطرة ما وُهب العرب . . ؟ ؟

إنهم قومُ صِدق ، لا مكان للزيف ولا للكذب فى حياتهم وسلوكهم . .

صادقون فى فضائلهم . . وصادقون فى رذائلهم . . ! !

إن حياتهم واضحة وُضوح الصحراء التى يفطنونها . والسماء التى فوقهم . .

ومن صدقهم هذا ، ووضوحهم ، جاءتهم الحكمة ، وقَدَروا على العِرافة ، وتعلموا لُغة الأشياء الصامتة فى الحياة . . ! !

وتتوالى الخواطر الرشيدة فى وعى نَسَّابة العرب وحافظ حكمتها ويمضى كأنه يحدث نفسه :

هذا هو قُسُّ بن ساعدة . . هذا ورقة بن نوفل . . هذا زيد بن عمرو ابن نفيل . . ومن قبلهم عشرات وعشرات عَمَرتْ بهم الأجيال والسّنون — كلهم استنكفوا عن عبادة الأوثان ، وشَقُّوا عصا الطاعة عن دين قومهم . وما يعبدون ، وهتفوا بدين إبراهيم ، وتطلعوا إلى السماء ينتظرون كلمة الله ، وما منهم من أحد إلا تمنى أن يكون النبىَّ المنتظر . . ومع هذا لم يَدَّعِ النبوة منهم أحد . . ! !

ولقد كان إيمانهم وطُهرهم وسلوكهم . .

وكانت ثقة الناس بهم مَدْعاةً لتصديقهم لو ادَّعى أحدهم النبوة وقال إنى رسول من عند الله .

كان الذين ينأَوْنَ عن عبادة الأصنام سيسارعون إلى اتباعهم فلماذا لم يدَّع النبوة من هؤلاء واحد . . ؟ !

لأنهم صادقون . .

أجل . . إن أعظم مزايا قومنا ، الصدق والوضوح . .

وإن العربى ليستنكف أن يكذب على ناقته فيقول لها ، وقد هاجَها الظمأ الشديد .

أُريد أُمَنِّيكِ الشراب لتهدئى ولكنَّ عارَ الكاذبين يَحُولُ

أفيخجل العربى العادى أن يكذب على ناقته . . ثم يكذب على الله أولئك الحُنفاء المتطهرون . . ؟ ؟ ! !

نحن إذن أهل صدق عظيم . .

وهل يكون النبى إلا صادقاً . .

فلماذا لا تكون هذه النبوءات حقًّا . . ؟ النبوءات التى تكاد تجمع على أن النبى القادم سَيُهِلُّ على الناس من جوار الكعبة ، بيت الله العظيم . . ؟ ؟

* * *

كانت الخواطر تغدو وتروح على هذا النحو فى وُجدان أبى بكر وعقله .

والآن ، وقد أنجز أعماله فى الشام فإنه يتهيأ للعودة إلى وطنه وبلاده .

وقُبيل رحيله بأيام قليلة يرى رؤيا . .

يرى القمر قد غادر مكانه فى الأفق الأعلى ، ونزل على مكة حيث تجزّأ إلى قطع وأجزاء تفرقت على جميع منازل مكة ، وبيوتها . ثم تضامَّت هذه الأجزاء مرة أخرى ، وعاد القمر إلى كِيانه الأول ، واستقر فى حجر أبى بكر . . ! !

صَحا من نومه ، وللرؤيا على وعيه سلطان مبين .

وسارَع إلى أحد الرهبان المتقين الذين أَلِفَهم ، وعقد معهم من صلات الرُّوح ما كانت تَقَرُّ بِهِ عينه .

وقصَّ عليه الرؤيا ، فتهلَّل وجه الراهب الصالح وقال لأبى بكر :

لقد أهلَّت أيامه . . ! !

ويتساءل أبو بكر :

مَن تعنى . . ؟ النبى الذى ننتظر . . ؟ ؟

ويجيبه الراهب :

نعم ، وستؤمن معه ، وستكون أسعد الناس به . . ! !

لم تكن رؤيا أبى بكر مُجرد حديث للنفس فى منامها ، ولا مجرد تعبير عن أشواق مُسْتَكِنَّةٍ فى « لَا شُعُورِه » . .

بل كانت إرهاصاً بحقائق وطيدة راسخة أمْلَتْ على صاحبها يقيناً لا يتزعزع بحاجة الناس إلى رسول ، وبِحَتْمِيَّةِ مجىء هذا الرسول . .

وكانت رُؤياه هذه ، بُشْرى بين يدى يَقِينِه ، وتحيَّةَ الغيب لروحه المتطلعة وإيمانه المتلهف . .

وهو حين يختار الله محمداً للرسالة .

وحين يسارع أبو بكر إلى الإيمان به ومعه ، فلن يفعل لأنه رأى رؤيا . . بل لأنه رأى رؤية . . رؤية عقل ، ومنطق ، وبصيرة أتاحها له طول تَفكُّره ، وطول إصغائه للحكمة ، وأفاءها عليه — قبْلا — سَبْقُ اصطفاء الله له ، وهدايته إياه . . ! !

* * *

ومع الصَّباح شدَّ أبو بكر رِحالَه مع القافلة العائدة إلى مكة ، كانت النُّوق والجمال تهرول ، فَرِحةً مُنتشِيةً كأنها فى عيد . .

وهبَّت نسائم حُلوة تحمل إلى الركبِ عِطْر بساتين الشام ، وكأنها تحيَّة الوداع تَنْتالُ وراءهم من البلد الطيب الذى غادروه من ساعات . .

وعزَف الحنين المستيقظ على أوتار القلوب المشتاقة ، فَغَرَّدتْ كل جارحةٍ فى جسم ، وانطلق الركبُ يُسابق أشواقه . .

وارتفع صوت حَادٍ يُنْشِد :

سأقدح من قِدرى نصيباً لجارتى ... وإن كان ما فيها كَفافاً على أهلى
إذا أنت لم تُشرِك رفيقك فى الذى ... يكون قليلا ، لم تُشارِكْه فى الفضل

ويحييه صادِح آخر ، وكأنها مُباراة :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالِكٍ ... ويا ابنة ذى البردين والفرَسِ الورد
إذا ما صَنَعْتِ الزاد فالْتمسى لـه ... أكيلاً فإنى لستُ آكِلَه وحدى
أخاً طارقاً ، أو جارَ بيت فإننى ... أخاف مَذمَّاتِ الأحاديث من بعدى
وإنى لَعبدُ الضيف ما دام ثاوياً ... وما فِيَّ إلا تلكَ مِن شِيمَةِ العبد

ويُخرج هذا التغريد الحلو أبا بكر من صَمْت نفسه ، وتتألَّق أمامه من جديد فضائلُ قومه . . هؤلاء الذين يَعُدُّون مِن مَذمَّات الحياة ونقائصها أن يأكل الرجل وحده دون أن تَهبه الحظوظ الحسنة ضيفاً يأكل معه . . ! !

وتتعالَى أناشيد الركب وتتبارى قصائده . .

وترتفع فى السماء ذِراع أبى بكر كأنها راية ، ويعلو صوته قائلا :

– أيكُمُ يُنشدنا قولَ أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت . . ؟

ويجىء صوت من طرف القافلة :

– أى قوله تريد يانسَّابَة العرب ، فإنَّ لأُمَيَّةَ قولا كثيراً ؟ ؟

ويجيبه أبوبكر : ألاَ نَبِيٌّ لَنا . .

ويرتفع صوت الرجل مُنشداً قصيدة أُمَيَّة :

ألاَ نَبِيٌّ لَنا مِنا فيخبرنـا ... ما بعد غايتنا من رأس مَجْرانَا
فقد علمنا . لوَانَّ العلم يَنفعنا ... أنْ سوف يلحق أُخرانا بأُولانا
وقد عجبت وما بالموت من عجب ... ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

وتزداد الإبلُ هُياماً . وتضطرم بالحُداء نَشوة ، فتقطع الأرض وَثْباً . .

وتهتز أفئدة المسافرين غِبطةً وأملا . .

ومَن يُلقِ عينيه ساعتئذ على وجه أبى بكر المتألق تحت ضوء الحكمة ، يبصر دُموع الشوق تتحدَّر متألقة على وجنتيه كَحبِّ الجُمان . . ! !

ويستمر المنشد فى إنشاده قصيدة أُمَيَّة :

يا رب لا تجعَلَنِّـــى مُشركاً أبداً ... واجعل سَريرةً قلبِي الدهرَ إيمانا

إنى أعوذ بمَنْ حَجَّ الحجيجُ لـه ... والرافعون لِدين الله أركانـــا

مُسَلِّمين إليـــه عنـد حجهموا ... لم يبتغوا بثواب الله أَثْمانـــا

وتمضى القافلة إلى غايتها ، تَبيتُ إذا دَثَّرها الليل ، وتنطلق إذا ناداها الصباح . .

والأشواق تَهُبُّ على أرواحهم هُبوب الرياح المُرْسَلَة ؛ فترطب من وَقدة الهجير . .

لقد مضى زمن طويل منذ غادروا مكة إلى الشام

تُرى ماذا جدَّ هناك من أمور . . ؟ ؟

هاهى ذى الأرض تُطوى . .

الشام تَذهب بعيداً . . بعيداً . .

ومكة تُقْبل حَثيثاً . . حثيثاً . .

وأخيراً . . تُطِلُّ مَشارف الوطن ، وعبير الأهْل . .

وهناك ، عند تلك المشارف كانت كوكبه من الناس تنتظر . . .

لقد بَصُرُوا بالقافلة من فوق ذُرى الجبل ، فتنادَوْا وتجمعوا لاستقبالها

وكلما اقتربت القافلة من المنتظرين أحسَّت منهم لَغَطاً كثيراً واضطراباً .

تُرى ، ماذا حدث . . ؟ !

والْتَقَى القادمون والمستقبلون فى عِناق ومَوَدَّة تعالَت خلالَه الأصوات .

بالجديد الغريب من الأنباء .

- ألا تعلمون . . ؟ إن قريشاً منذ فارقتموها لا تنام الليل . . ! !

- ويْح قريش . . ولماذا . . ؟ ؟

- إن محمداً وضع الجمْر على أنفها . . ! !

الجمر . . ؟ كيف . . ؟ ماذا جرى . . ؟ !

إنه يقول : إن الله أرسله لنعبده وحده ونذَرَ آلهتنا . . ! !

وهَمس واحد ممن تَستهويهم الفُكاهة قائلا :

- دَعْهُ يُحطمها ، فطالما زاحمتنا فى أكل الثَّريد ، وشرب اللبن . . ! !

واختلطت الأصوات فى ضوضاء مثيرة . .

واقترب من أبى بكر بعضُ ذوى الأناة ، وأخذ يقصّ عليه النبأ فى هدوء ، وأبو بكر يُغالب دموعه وحُبوره . . ! !

ولَدَى مَدخل مكة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل - عمرو ابن هشام - .

وتعانقوا جميعاً . .

وبدأ أبو جهل الحديث :

- أوَحَدَّثُوك عن صاحبك يا عتيق . .

« وكان أبو بكر قبل إسلامه يُسمَّى عتيقاً » .

أجابه أبو بكر .

- تعنى محمداً الأمين . .

وقال أبو جهل :

نعم ، أعنى يتيم بَنِى عبد المُطَّلب . . ! !

ودار حوار سريع بين الاثنين :

– أسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام . . ؟ ؟

– نعم ، سمعته . وسمعه الناس جميعاً . .

– وماذا قال . . ؟

يقول إن فى السماء إلاهاً ، أرسله إلينا لنعبده ونَذَر ما كان يعبد آباؤنا . . ! !

– أوَقال إن الله أوحَى إليه . . ؟ ؟

– أجَل . .

ألم يقل كيف كلَّمه ربه . . ؟ ؟

– قال : إن جبريل أتاه فى غار حراء . .

– وتألَّق وجه أبى بكر كأن الشمس قد اختصَّتْه آنئذ بكل ضِيائها وسَناها ، وقال فى هدوء مُجَلْجِل :

– إن كان قال ، فقد صَدَق . . ! ! !

ودارت الأرض بأبى جهل ، وتَلعثَمتْ خُطواته ، وكاد جسمه يتهاوى فوق ساقيه المهزولَتين . .

وتناقل الناس كلمة أبى بكر من واحد ، إلى آخر حتى صار لهم بها دَوِىٌّ كَدَوِىِّ النحل .

وقصد أبو بكر داره ليرى أهله ، وينفُض عنه وَعْثاءَ السفر ، وبعدها يقضى الله أمراً كان مفعولا . .

* * *

والآن ، لِنترك « أبا بكر » قليلا فى داره وبين أهله ، حيث نعاود السير فى موكبه بعد قليل لنلتقى به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولْنقض بعض الوقت مع كلمته الفذة الجامعة :–

« إن كان قال فقد صدق » . . ! ! !

أجل . . فهذه العبارة الأمينة المضيئة ، هى التى ستتشكَّل وَفْقَها كل حياته المقبلة ، وستجعل من صاحبها أستاذاً للبشرية فى فن الإيمان . .

انظروا . .

إن موضوع الرسالة لم يكن جديداً على أبى بكر ، فهو بكل ما معه من ذكاء ، وفطرة ، ومنطق ، قد قلَّب كل وجوه النظر السديد فى هذه القضية ، وانتهى إلى أن الله لن يترك عباده حَيارى . .

وهو بكل ما معه من ذكاء وفطرة ومنطق ، كان خبيراً بالرجال . .

ولقد عاش مع « محمد » سنواتٍ طِوالاً ، ورأى فيه النموذج الحى للإنسان الكامل . .

وهكذا ، لم يكد يتلقى سمعُه النبأ العظيم ، حتى كان إيمانه الذكى مُهيَّأً ليأخذ دوره من فَوره . .

ولم تكن المشكلة بالنسبة إليه تتمثل فى احتمال الصدق والكذب ، بل كانت تتمثل فى هذا السؤال :

– هل صحيح أن محمداً قال هذا الذى يرويه الناس عنه . . ؟ ؟

– إن كان قال . . فقد صدق . . ! !

من شاء فليبحث ، ولْيفحص ، ولْيَتشكَّك ، ولْينتظر . .

أما أبو بكر فلا . .

وحسب محمد أن تنفرج شفتاه عن كلمة . .

حَسْبُه أن يُحرِّك لسانه بقَوْل . . فإذا الصدق الذى ليس كمثله صدق . وإذا اليقين الذى لا يعلوه يقين . . ! !

وهذه الثقة بكل عُرامِها وتَقواها لم تُعطَ كما قلنا اعتباطاً . . إنما نُسجت

عُراها الوُثْقى من كل نُبوءة صادقة سمعها . . ومن كل منطق قويم اهتدى به ، ثم من خبرته التى لا تكذب ، بصدق محمد . . وعظمة محمد . . والحياة الطاهرة التى رأى محمداً يحياها . .

مُحمَّد . . .

ما أطهر الاسم ، وما أعظم صاحبه . . ! !

أربعون عاماً عاشها بين الناس قبل أن يجئ هذا اليوم الذى اختير فيه ليبلغ كلمة الله .

أربعون عاماً كاملة .

لم يخن خلالها أمانة . .

ولم يُزيف كلمة . .

لم يكذب قط ، ولو مازحاً . . ! !

لم تأخذه عن الطهر نزوة ، ولا عن العظمة دَنِيَّة . ! !

لم يُرَ قطّ إلا عظيماً ، وكُفْؤاً لكل عظيم . . ! !

مُذْ كان طفلا يدعوه أترابه إلى مشاركتهم اللعب ، ومطارحتهم اللهو البرىء، فيلوى عِطفه عنهم ويقول لهم :

« أنا لم أُخلَق لهذا » . . ! ! !

حتى صار شاباً ، فملأ شبابُه فِجاجَ مَكة عَبيراً وطُهراً ، وصار اسمه تسبيحة عَذْبَة على كل لسان . . ! !

وما كانت قريش هازلة معه ، ولا مُجاملة له ، ولا مُتفضلةً عليه حين خلَع عليه إجماعُها لقب « الأمين » . . ! !

بل كانت بهذا ترفع من قدر نفسها ، وتُباهى مَن حولَها من قبائل العرب بهذا الذى ارتفع فى سِنِّه المبكرة إلى أعلى مستويات الأمانة . .

لا أمانة المال وحده ، ولا أمانة الودائع وحدها . . بل الأمانة على كل ما فى الحياة من قِيَم ، ومُثُل ، وأشياء . . .

* * *

آلآن يَكْذبُ محمد . . ؟ ؟ ! !

آلآن تتحول فجأة حياة قامت على الصدق المطلق إلى هذه الأكذوبة الضخمة . . ادِّعاء الرسالة والكذب على الله . . ؟ ؟

محمد التوَّاب ، الأوَّاب . . الخاشع . . الضارع . . المُتَبَتِّل الأمين ، الطاهر – يكذب على الله . . ؟ !

أبداً . . أبداً . . أبداً . .

ومنذ متى ، كان من الحُنفاء العابدين فى قومه مَن يكذب على الله . . ؟

وهل كان فى ادِّعاء الرسالة مَغنم يُزيِّن للناس إتْيانَه . . ؟ ؟ ! أوَ لَم يَر « محمد » بعينه ، كيف صرَخت قريش فى وجه « زيد بن عمرو ابن نُفَيْل » برغم شيخوخته المائلة للغروب ، برغم أنه لم يأتها بدين جديد ، ولم يضع المعْوَل فوق آلهتها وأصنامها . . ؟

فكيف إذا جاءها رسول مثل « محمد » ، يقول للناس :

– اتركوا الأصنام فإنها ضلال ، واعبدوا الله الحى القيُّوم . . ؟ !

أهُناك مُخاطرة تُنذر بالهول كهذه المُخاطرة . . ؟ !

وهل يختارها عاقل ليتسلَّى بها ويتبذَّخ . . ؟ !

أم أنها رسالة فرضَتْ نفسها فَرْضاً على صاحبها ، وإيمانٌ حق ألْقَى عِبئَه الذى لا يُقاوم على مُصطفاه . . ؟ !

إن « محمداً » أنضرُ مثال لكل ما يُنعم به الله من عافية فى العقل ،

وفى الخلُق ، وفى الضمير . .

وما طَوَفَتْ به ظِنَّة ذات يوم . .

وإن الحنفاء الحكماء ، لَيبشرون من عهد بعيد بالنبى القادم .

وإن الناس حيثما يَمَّمَ أبو بكر وجهه ، لَتأخذُهم فاقَةٌ شديدة إلى هادٍ ومُعلم . . إلى رسول من عند الله يُبلغهم كلمته ، ويرفع وسط صفوفهم رايته . .

أفَئِنْ جاء الرسول يُكفَر به . . ؟

ومحمد بالذات . . ؟ ؟

لا . . .

« إن كان قال ، فقد صَدق » . . ! ! !

هكذا كان منطق الإيمان فى وَعى الرجل الرشيد « أبى بكر » . .

إنه لَيفرُكُ كفّيه فى غبطة ، ويردد لآخر مرة قول أمية بن أبى الصَّلْت :

ألا نبيٌّ لَنا مِنَّا فيخبرنا . . .

أجلْ ، لآخر مرة . .

فمنذ اللحظة التى سيلَقَى فيها محمداً ، لن يقول متمنياً :

« ألاَ نَبيٌّ لنا » . . فقد جاء النبى ، وجاءت البُشرَى . .

وسيكون شعاره ، ونشيده ، وهُتافه دَوْماً :

« إن كان قال ، فقد صدق » . . ! !

سيقولها كلما جاء محمد بآية . .

سيقولها عند كل فتنة مُرْجِفَة . .

سيقولها عند كل هزيمة حالِكَة . .

سيقولها حتى يُثيبَه الله عليها ، فينعته بـ « ثانِىَ اثنين » ، و « الصِّدِّيق » .

أما الآن ، فلنُعد إليه ، ولْنصحَب خَطْوَه المبارك ، إذْ يأخذ طريقه إلى رسول الله لِنشهد أول لقاء بين « الرسول » و « الصِّدِّيق » . . ! ! !

غادر « أبو بكر » داره إلى دار الرسول تسبقه أشواقه . .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مقيماً فى داره مع زوجه « خديجة » رضى الله عنها .

خديجة . . التى كانت أول العالَمين إسلاماً معه وإيماناً به . . .

ولطالما سمعت هى الأخرى من قريبها « ورقة بن نوفل » تَراتيل الحنين إلى النبى المُقبل . .

ولقد عرفت « محمداً » زميلا لها فى تجارتها ، ثم عرفته بَعْلاً وزوجاً ، فما رأت سلوكاً أطهر ، ولا قلباً أكبر ، ولا عقلا أرجح ، ولا صدقاً أعظم مما رأت من محمد . .

من أجل هذا ، لم يكد الرسول يحدثها عن النعمة التى أفاءها الله عليه بالوحى حتى قالت من كل يقينها : صدقت . . ! !

ولقد اختارها الله على علم لتكون شريكة رسوله فى الحياة حين ينزل عليه الوحى بجلاله وأثقاله ، وهيبته ورهبته . .

وكان هناك مع الرسول وزوجته فتى ممشوق ، هو « على بن أبى طالب » رضى الله عنه . .

كان الرسول قد ضَمَّه إليه من عهد بعيد حين نزلت بعمه ضائقة ، وبقى معه ، فلما جاء الوحى سارع الفتى إلى الإيمان .

قَرع أبو بكر الباب ، ونادى :

وتألَّق بِشْرُ الحياة جميعه على مُحيَّا الرسول ، وقال مناديًا خديجة :

إنه « عتيق » يا خديجة . .

وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه .

وجرى الحديث بينهما فى مثل سرعة الضوء وصَفائه . .

قال أبو بكر :

– أصحيح ما أنبأنى به القوم يا أخا العرب . . ؟

أجاب الرسول سائلا :

– وماذا أنبأوك . .

– قالوا إن الله أرسلك إلينا لنعبده ، ولا نشرك به شيئاً . .

– وماذا كان جوابك لهم يا عتيق . . ؟

– قلت لهم : إن كان قال ، فقد صدق . . ! !

وفاضت عينا رسول من الدمع غِبطة وشكراً . .

وعانق صاحبه وقبّل جبينه . ومضى يحدثه كيف جاءه الوحى فى غار حراء قائلا له :

« اقْرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الذى خلَق ، خلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ . اقْرأْ وربُّك الأكْرَمُ ، الذى عَلَّمَ بِالقلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » . .

وخفَض أبو بكر رأسه فى خشوع وتقوى ، تحيَّةً لراية الله التى رآها ترتفع أمامه إلى أعلى السَّارية ، متمثلة فى هذه الآيات المنزلة . . ! !

ثم رفع رأسه ، وشدَّ بكلتا يديه على يمين رسول الله وقال : أشهد أنك صادق أمين . .

أشهد أن لا إله إلا الله . . وأشهد أنك رسول الله . . ! ! !

* * *

وآنئذ كان الغيب يُجرِى أعظم عملية تفجير تاريخى . .

كان كل ما للإسلام من مستقبل ، وحضارة ، واتساع . يُغادر تلك اللحظة ، ويأخذ كل شيء مكانه على أرض الغد الطويل . .

أجل ، آنئذ ، وفى تلك اللحظة التى شهدت يَداً تُصافِح ، وقلباً يُبايع ، كانت نفس هذه اللحظة ، تتفجَّر وتُخرج خَبْئَها المهُول . . ! !

كانت تَلِدُ زماناً بأسْره . . بأجياله . . بمعجزاته وانتصاراته . .

ولم يسمع أحد يومئذ دَوِىَّ هذا التفجُّر . . حتى الرسول وصاحبه ؛ لأن صوت اليقين فى قَلْبيهما كان أعلى من كل صوت عَداه . . ! !

* * *

هكذا أسلم أبو بكر فى هدوء ، ويقين ، وقوة . .

وسيظل حاملا رايته فى هدوء ، ويقين ، وقوة . .

أسلَم الرجل الذى اصطفاه الله ليكون لرسوله الصدِّيق ، وثَانِىَ اثنين ، وغداً يكون الخليفة . .

أسلم الرجل الذى وإن لم يكن نبيًّا ، فإنه سَيُكَمِّل دَوْرَ النبى . . .

وفى زيارته التالية لرسول الله لم يكن وحده . . بل كان معه وفى صحبته خمسة من أشراف قريش ، أقنعهم أبو بكر بالإسلام فجاءوا يبايعون الرسول . . أولئك هم :

عثمان بن عفان ، والزُّبَيْر بن العوَّام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقّاص ، وطلحة بن عبيد الله . .

أجَل – هؤلاء الخمسة الأعلام ، مرة واحدة .

وكانت هذه أولى بركات أبى بكر . .

فعمًّا قليل تنمو صُفوف المقبلين على الإسلام .

وسيُقبل الناس بعضُهم على بعض قائلين :

- « محمد » و « أبو بكر » . . ؟ ! !

والله لا يجتمع مثلهما على ضَلالَةٍ أبداً . .

آمن أبو بكر إذن . . فمن أى طراز كان إيمانه . . ؟ ؟

إن عظمة هذا الرجل مَاثِلة فى إيمانه . . مَاثِلَةٌ فى أنه مارَسَ فوق أرض البشَر وفى دنيا الناس نوعاً من الإيمان جِدَّ عجيب . . ! !

إيمان مُحيِّر ! !

سَهلٌ إلى أصعب مَدًى . .

كالذَّرَّة لا تكاد تُرى . .

وكالذَّرَّة ، تنطوى على أعظم طاقة مُذهلة . . ! !

إن إيمان أبى بكر ، كالنسمات الوديعة الرَّقْراقة ، نَنْشَقُها دون أن نُحِسَّها ودون أن تُثير فينا الانتباه ، ولكن حين تعرِض لأحد أزْمة اختناق ندرك أن هذا الشىء الذى كان عادياً ، هو سِرُّ الحياة ! وكل الحياة . . ! !

كذلك ، سيعيش أبو بكر بإيمانه بين الناس هادئاً وديعاً .

ولكن حين تُلِمُّ بالإسلام أزمة ، يتبيَّن الناس فجأة ، وعلى صورة نادرة باهرة ، أية طاقة جبَّارة شامخة ، تستقر تحت جوانح هذا الوديع الرَّقْراق . . ! ! !

ساعتئذ يدرك المسلمون أن الأنفاس الهادئة التى كانت تتردّد بين صفوفهم ، هى رُوح الحياة ، وأن الإيمان الْحَيَّ الذى يحمله هذا الرجل فى هدوء ، إنما هو قَدَرٌ هائل لا تصمُد أمامه عقَبة ، ولا مستحيل . .

لقد تحدث الرسول فيما بعد كثيراً عن أبى بكر .

وكان مما قاله عنه :

« مالأحدٍ عندنا يد ، إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة . . .

« وما نفعنى مالُ أحد قط ، مثلما نفعنى مالُ أبى بكر . . .

« وما عرضتُ الإسلام على أحد إلا كانت له كَبْوَةٌ عدَا أبى بكر ، فإنه لم يتَلَعْثَم » . . ! ! !

هذا أصدق وصف وأذكاه لإيمان أبى بكر . .

إنه الإيمان الذى لم يتلعثم أبداً .

* لم يتلعثم عند السَّانحة الأولى بل كان كأنه على موعد مع الدِّين الجديد ، فسارع إليه مُسارَعة الظامئ المُشْتاق . . ! !

* ولم يتلعثم عندما انتقض أهل الردة ضد الإسلام ، وهَمُّوا به إثْرَ وفاة الرسول . بل ازداد هذا الإيمان فى قَلْبِ المِحنة ثباتاً ورُسوخاً ، وتألُّقا وتفوُّقاً . . وعرف واجبه من فَوره ، ثم باشَر هذا الواجب على أكمل وجه وأتَمِّه . .

* ولم يتلعثم فيما بين ذَيْنِكَ من مَواقف امْتُحِنَ فيها إيمان المؤمنين امتحاناً رهيباً ، فلم يكن ثَمَّةَ أرسخ ، ولا أقوى من إيمان أبى بكر . .

ولْنشاهد الآن بعضاً من مواقف ذلك الإيمان الفريد بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

* * *

فى ضُحى يوم من الأيام اجتاح أهل مكة جميعاً حديث أثار كل ما فى أنفسهم من دهشة وعجب .

فقد كان أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مرّ بالكعبة فأبصر رسولَ الله

جالساً وحده فى المسجد الحرام ، صامتاً مفكراً . .

وأراد أبو جهل أن يُؤذِىَ الرسول ببعض سُخرِياته . فاقترب منه وسأله .

– أوَلَم يأتك الليلة شىء جديد . . ؟ !

فرفع الرسول رأسه نحوه وأجاب فى جدّ :

– نعم ، أُسْرِىَ بى الليلة إلى بيت المقدس بالشام .

فقال أبو جهل مستنكراً :

وأصبحتَ بين أظْهُرنا . . ؟ ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم . .

وهنا صاح أبو جهل فى جنون :

– يا بنى كَعب بن لُؤَىّ ، هَلُّموا . . ! !

وأقبلت قريش ، ينادى بعضها بعضاً . .

ولم يكن الرسول قد حدَّث أحداً من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد . .

تجمَّع الناس عند الكعبة ، ومضى أبو جهل يحدثهم فى حُبور بما سمع ، فقد ظنَّها الفرصة المواتية التى عندها سينفضُّ عن الرسول كل مَن آمن به .

وتقدم واحد من المسلمين ، وسأل الرسول :

– أحقًّا أُسْرِىَ بك الليلة يا رسول الله . ؟

فأجاب الرسول :

– نعم ، وصليت بإخوانى الأنبياء هناك . .

وسرَى فى الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة .

ورحَّب المشركون بما سمعوا ، ظانِّين أن فى هذا النبأ نهايَة الرسول :

واحْتَوَشَتِ الشكوك فريقاً من المسلمين .

وسعَى بعض رجالات قريش إلى بيت أبى بكر فَرِحين شامتين ،

لا يُخالجهم ريب فى أنهم سيعودون ومعهم رِدَّتُه عن هذا الدين . . ! !

فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ، ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مُضْنٍ وزمان طويل . .

فكيف بالذى راح ، ورجع ، وصلَّى هناك . . كل ذلك فى بضع ساعات ! !

بَلَغوا دار أبى بكر ، وصاحوا به :

- يا عتيق . . كُلُّ أمر صاحبك قبل اليوم كان أَمَماً - يعنى هيِّناً ومُحْتَملا - أما الآن فاخرج لِتَسمع . .

وبزَغَ عليهم أبو بكر دَهِشاً تُجَمِّله سكينته ووقاره وسألهم : ماذا وراءكم . . ؟

قالوا : صاحبك :

وانتفض أبو بكر وقال :

- وَيْحَكُم . . هل أصابه سوء . . . ؟ !

وتراجع القوم قليلا ، وازْدَرَدَ كلٌّ منهم رِيقَه فى مشقَّة وقال قائلهم :

- إنه هناك عند الكعبة ، يحدث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . .

وتقدم آخر يكمل الحديث ساخراً ، وقال :

- ذهب ليلا ، وعاد ليلا ، وأصبح بين أظهُرنا . .

فأجابهم أبو بكر وقد تهلَّل مُحيّاه :

- « أىُّ بأس . ؟ إنى لَأُصدقُه فيما هو أبعد من ذلك . .

أُصَدِّقُه فى خبر السماء يأتيه فى غَدوة أو رَوْحَة . . »

ثم أطلق عبارته الصامدة .

« إن كان قال ؛ فقد صدق » . . ! ! !

أهناك كلمات تستطيع النهوض إلى مستوى الإشادة بهذا الموقف أو التعليق عليه دون أن يَغلبها الحياء والعجز على أمرها . . ؟ ؟

عبارة واحدة تستطيع المناسبة أن تُسعفنا بها ، هى :

– يا واهِبَ هذا اليقين سبحانك . . ! ! !

هذا رجل لم يُؤمن إيمان الصُّدفة ، بل آمن إيمان الفِطنة . .

لم يؤمن بعواطفه ، بل آمن بذكائه . .

لم يدفعه إلى الإيمان منطق القلب وحده . . بل منطق العقل قبله . .

انظروا إلى قوله :

« إنى لَأصدقُه فيما هو أبعد من ذلك . . أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة أورَوْحة » .

أجل . . . أفلا يُصَدِّقه إذا قطع بضعة أميال فى ليلة واحدة . ؟ !

إن الله الذى آمن به أبوبكر لا مُنتهَى لقدرته . .

والرسول الذى آمن به أبوبكر لا شك فى صدقه . .

وما أكثر الظواهر التى نراها ونُحِسُّها ويعجز العقل عن تفسيرها .

فلتكن هذه واحدة منها .

الذى يعنيه أن يكون الرسول قد أخبَر وقال . وعندئذ يكون كل شىء ممكناً وصادقاً . . ! !

إذا كان وَافِدُ السماء وسَفيرها ، يغدو ويروح بين السماء والأرض فى لحظة مُلْقياً القرآن على قلب النبى ليكون من المُنذِرين . .

وإذا كان أبوبكر قد آمن بهذا ، ففيم يشكُّ بعد هذا . . ؟

فى سفر الرسول إلى بيت المقدس وأَوْبَتِه منه فى ليلة واحدة ؟

وأىُّ بأس . . ؟

إن الزمان والمكان . .

وإن البُعد والقرب . .

كل أولئك أمور تتعلق بقدرة الناس .

أما الله الذى يقول للشىء : كن فيكون ، فما الزمان ، والمكان أمام قدرته . . ؟ ؟

ما الأبْعاد ، والآماد ، أمام مشيئته . . ؟ ؟

ليست المشكلة إذن : كيف ذهب الرسول إلى بيت المقدس وعاد منه فى ليلة .

ولكن المسألة هى : هل قال محمد ذلك . . ؟

« إن كان قال ، فقد صدق » . . ! ! !

وهَرْوَل أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله .

وعند الكعبة رأى الجمع الشامِتَ المُرْتاب ، مُتحلِّقين لأغطِين .

ورأى نور الله هناك فى جلسته الخاشعة الضارعة مستقبلا الكعبة ، لا يُحِسُّ من اللَّغَط الدائر حوله شيئاً ، ولا يسمع للحمق رِكْزا .

وانطرح أبو بكر عليه يعانقه ويقول :

– بأبى أنت وأمى يا رسول الله . . . والله إنك لصادق ، والله إنك لصادق . . ! !

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد يتجلّى خِلاله تهلُّل هذا الإيمان للتضحية والبذل .

فذات يوم وأبو بكر فى داره سَعِد بزيارة رسول الله له ، وفوجىء بالرسول يقول له :

– يا أبا بكر ، إن الله أذِن لى بالهجرة . .

كان أصحاب النبى عليه السلام ، قد سبقوه إلى المدينة مهاجرين ، وبقى الرسول بمكة ينتظر أن يأذن الله له ، وبقى أبوبكر بجانبه . .

والآن وهو يسمع النبأ الجديد يكاد قلبه يطير من الفَرح ويقول : الصُّحْبَةَ يا رسول الله . .

فيجيبه الرسول : الصحبة يا أبا بكر . .

إن الهجرة فى حد ذاتها رحلةٌ عافية ؛ فهى اطِّراحٌ لأذى قريش ولؤامراتها التى لا تُؤذِنُ بانتهاء . .

ولقد هاجر المسلمون إلى المدينة بإذن من الرسول وإنهم بالهجرة لَسُعَداء ، فقد أراحتْهم من سَفَهِ قومهم ، وإن يَكُ لِفراق الأهل والوطن مرارة وغُصَّة . .

ولكن الهجرة بالنسبة للرسول خاصَّة ، مخاطرة ، ما مثلها مخاطرة . .

فإن قريشاً إذا كانت قد تركت المسلمين يغادرون مكة فى سلام فما هى أبداً بتاركة رسول الله .

ولقد تحدث زعماؤها فى هذا كثيراً ، وانتهوا إلى أنهم إذا تركوا الرسول يخرج إلى المدينة ، ويرفع فى سمائها رايته ، فلسوف يجمع العرب حوله ثم يغزوبهم قريشاً . .

ومن ثَمَّ قرروا أن يظفروا برأس الرسول . .

ولعلَّهم إنما تركوا المسلمين ومعهم عمر بن الخطاب وعمر « بصفة خاصة » نقول : لعلهم تركوهم يهاجرون ليبقى الرسول بينهم بلا أنصار حتى يتأتَّى لهم الخلاص من أمره بسهولة . . ! !

إذن فهجرة الرسول ليست نزهة ، ولا مجرد هجرة . إنما هى مخاطرة مَهُولة . ومطاردة فادحة . .

وأبو بكر يعرف هذا جيداً ، ويعلم أن قريشاً ستملأ السَّهْل والجبل بفُرسانها ومُقتفى الخُطى والآثار فيها حتى تظفر بالنبي المهاجر.

فما باله يتهلَّل لهذه الصحبة ، ويحرص عليها ، ويطير قلبه فرحاً بها . . ؟

إنه الإيمان . . ! !

إيمانه – أولا – بأن الله لم يُلْقِ بكلمته إلى الناس وفى مشيئته أن يتركها لقريش تَذَرُّوها مع الريح من أوّل صيحة . .

وإيمانه – ثانياً – بأن الإيمان مسئولية وتضحية ، ولقد أصبح مسئولا عن هذا الدين مُنذ تَبِعَه ، وعن هذا الرسول منذ بايَعه . .

ومهما تكن العواقب إذن ، فلن يكون ثَمَّةَ سوى طريق واحد لا يعرف أبو بكر سواه . . ذلكم هو طريق الواجب الذى يحدده إيمانه ، وطريق التضحية التى يتطلبها هذا الإيمان .

لقد آمن بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

ومهمته بعد ، تتلخص فى أن يجعل من حياته كلها سياجاً يحمى بها الدعوة والداعى . . الدين والرسول . .

وحين يُوَفَّق فى مهمته هذه ، فتلك عنده هى الحظوظ الوافية التى يرجوها ، وينتشى حُبوراً بها ، ويُحسُّ كلما تزايدت أهوالها وأخطارها ، أنه أعظم أهل الأرض حظًّا ، وأوفاهم سعادة وغُنماً . . ؟ ! !

ومن هنا كانت غبطته الفائقة حين رأى نفسه زميلا للرسول فى هجرته . .

ولقد أجزل الله له المَثُوبة والمكافأة .

وكانت المثوبة مزيداً من الإيمان ، ملأ الله به قلبه فى ضوء تجربة من أروع التجارب .

فحين أَوَى مع الرسول إلى الغار ليختفيا فيه من قُوَى المطارَدَة التى كانت تلهث وراءهما طمعاً فى نَيْلِ الجائزة المغرية التى أَهْدَتْها قريش لمن يأتيها بالرسول عليه السلام .

حين أَوَيَا إلى الغار معاً – الرسول ، والصدِّيق ، واقترب المُطارِدُون من الغار ، وراحوا يُطوِّفون حوله – وفُزِّع أبو بكر تحت هوْل السؤال الذى أخذ يُلحُّ عليه :

– ماذا لو نظر أحدهم إلى جوف الغار . . ؟

– ماذا لو ظفر المجرمون برسول الله . . ؟

حينئذ كان الله يدَّخر للصدِّيق الدرس الأخير الذى سيكمِّل إيمانه ويبلغ به أعلى مُستويات الإيمان المتاحة لِبَشر . .

فلقد ألْقى على الرسول سؤاله :

– يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلينا لرآنا . .

قال هذا وعيناه تتجهان إلى رسول الله فى حياء وقَلَق .

ولم يكَدْ بصره يلتقى بمُحيَّا الرسول حتى رأى عجباً . . رأى وجهاً مُنَهلِلا كأنما أُلقيت عليه آنئذ كل ما فى الحياة من سَكِينة ، وطُمأنينة ، وأمَل . .

ورأى راحةَ الرسول تلامِسُ صدره ، فكأنما تَسكُب فيه الطمأنينةَ سَكْباً . . ! !

وقال له الرسول :

– يا أبا بكر – لا تحزن ، إن الله معنا . .

– ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما . . ؟ ! !

وسكَن أبو بكر ، ورأى المطاردين ، يُطوِّفون بالغار فى خَبال ، ثم يرتدُّون عنه حيارَى وعُمياناً ، لم ينالُوا شَيْئاً . . ! !

تَمَّ له يومئذ إيمانُه ، واستَوى على عَرش اليقين يقينُه .

ولَكأنما اختارته الأقدار لصحبة الرسول فى الهجرة لِتُرِيَه هذا المشهد .

بل لَكأنما أراد القدَر هذا المشهد وهيَّأه ، ليبلغ أبو بكر من عِظَته البالغة كل ما تبقَّ له من حُظوظ إيمانه . جزاءً وِفاقاً ، وكأساً دِهاقاً ، لن يظمأ أبو بكر بعدها أبداً إلى إيمان ويقين . . لقد بلَغ إيمانه الذروة فى لَحظَة الغار . . !

* * *

ولْنتابع سيرنا وراء هذا الإيمان الفذّ لِنرى جلاله المَهيب فى مَشهدٍ تِلْوَ مَشْهد . .

فى السنة الخامسة من الهجرة ، وفى شهر ذى القِعْدة ، غادر الرسول المدينة ، ومعه عدد كبير من المسلمين . قاصدين مكة ليعْتمروا . . وساق الهَدْىَ أمامه لتعلم قريش أن الرسول جاء زائراً للبيت الحرام ، ولم يأت مُقاتلا . .

بَيْدَ أنَّ نبأ هذه الزيارة ، كان قد سَبَق إلى قريش بطريقة مَّا فحشدت جُمُوعها ، وصممت على منع الرسول وصحبه من دخول مكة وزيارة الكعبة .

ونزل الرسول وأصحابه عند مهبَط الحُدَيْبية .

وأوفد إلى قريش « عثمان بن عفان » ليشرح لها سَببَ مجيئه . .

وأوفدت قريش « سُهَيل بن عمرو » ليُفاوض الرسول فى الأمر .

، وانتهت المفاوَضة إلى عقد ميثاق ، يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مُرجئين زيارة البيت إلى العام القادم ، كما يتضمَّن الميثاق التزام المسلمين بأن يردُّوا إلى قريش من يأتيهم مُسْلِماً ، ولا تردُّ قريش إلى المسلمين من يعود إليها مُرتدًّا . .

ولم يَكد الكاتب ينتهى من كتابة الميثاق ، ولم يَمهَرهُ الرسول بخاتم النبوة بعد ، حتى فوجئ المسلمون بفتى يأتيهم صارخاً مستغيثاً ، يرسُف فى قيوده ، ويجرجر أغلاله المُثبتَةَ فى حجارة غليظة كى تُعوقَه عن المسير . . !

كان هذا الفتى « أبا جندل » وهو ابن « سهيل بن عمرو » مندوب قريش . . هذا الذى يتفاوض مع رسول الله .

وفاض قلب الرسول من الأسَى لمنظر أبى جندل الذى ارتفع جُؤَارُه مستغيثاً برسول الله .

وقال الرسول لسهيل :

– اترك لنا « جندلاً » فإنَّا لم نُنْجز العهد بعد . .

وما كان لسهيل أن يترك ولده يذهب إلى الإسلام ، وهو واحد من زعماء قريش ، فأصرَّ على تسليمه ، أو ينقض العهد كله . . وتكون الحرب .

وصاح أبو جندل :

– يامعشر المسلمين ، أتتركونى أُرَدَّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً . . ؟

– ألاَ تُبصرون ما على جسدى من عذابٍ فى الله . . ؟

وناداه الرسول بكلمات آسية :

– اصبر . . وسيجعل الله لك مَخرجاً . .

كان هذا المشهد أدهى وأكبر من أن تحتمله أعصاب المسلمين . .

فكيف يرجعون دون أن يزوروا البيت الحرام . . ؟

وكيف يُسْلِمون للعذاب مُسلماً جاء يستصرخ بهم ، ويستغيث . . ؟

ويُصور لنا احتدامَ القلق الرهيب فى أنفسهم ، موقفُ واحد من أعظمهم إيماناً ، وتفانياً ، وطاعة . . هو « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه . .

لقد ذهب إلى الرسول يسأله ، ويُناقشه . .

– يا نبى الله ، ألستَ نبيَّ الله حقًّا . . ؟

وأجابه الرسول :

– بلَى ، يا عمر . .

قال : فَلِمَ نُعْطَ الدَّنِيَّة فى ديننا . . ؟

أجابه الرسول :

– يا عمر ، إنى رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصرى . .

قال عمر :

– أوَلَم تَعِدْنا – يا رسول الله – بأننا سنأتى البيت ونطوف به . . ؟ ؟

قال الرسول : أوَقُلْتُ هذا العام ، يا عمر . . ؟ ؟

قال عمر : لا . .

قال النبى : فإنَّك آتيه ومُطَوِّفٌ به .

إن هذا الحوار يكشف عن حِدَّة الأزمة التى عاناها المسلمون يومئذ . . ولكنْ ما شأن أبى بكر بهذا كله . . ؟ ؟

إن « أبا بكر » ، هو أستاذ فَن الإيمان فى ذلك اليوم العصيب ، كما سيظل أستاذه فى كل حين . . ولنمض وراء « عمر » ، فبعد لحظات سنلتقى معه عند « مِنَصَّة الأستاذية » حيث يتربَّع فوقها هذا المعلِّم الكبير . أبو بكر الصديق ! !

ينصرف عمر . . من بين يدى رسول الله ، وهو لا يزال يُعانى مشاعره القَلِقَة . .

ولقد ردَّه الأدب مع الرسول عن الاسترسال فى المُناقشة والإلحاح فى السؤال .

بَيْد أنه يُحسُّ فى نفسه حاجة إلى مزيد من الوضوح .

فمع من يتحدث . . ؟

لا أحد سوى أبى بكر .

ومضى يجتاز صفوف المسلمين وحلقاتهم حتى لمحه هناك ، فى أقصى الجمْع تغمره طمأنينة عجيبة . . !

أُلْقِى عليه الأسئلة ذاتها التى أُلقاها على رسول الله منذ لحظات .

وتَلَقَّى من أبى بكر الإجابات ذاتها التى سمعها من رسول الله .

وانتهى الحوار بينهما . .

يقول عمر :

– « فأخذ أبو بكر بيدى ، وجذبها فى قوة ، وقال لى :

« أيها الرجل ، إنه رسول الله ، ولن يعصيه ، وإن الله ناصرُه ، فاستمسك بغَرْزِه ، فوالله إنه على الحق . . .

« فأنزل الله السَّكينَة على قلبى وعلمتُ أنه الحق »

هذا هو إيمان أبى بكر الذى لا يتلعثم ، ولا يبحث عن نفسه أبداً . .

الإيمان الذى لا تأخذه سِنَةٌ ، ولا تَتقحَّمه خَلْجةُ شك فى سرٍّ أو علَن . . !

وفى ساعات العُسْرة ، وخلال الأزمات العُظمى ، كان إيمان هذا المؤمن يُخرج خَبْأه الباهر ، فيملأ الزمان ، والمكان ، والأنفُسَ رَوْعة . . ! ! !

* * *

والآن لنشهدْه يوم « بَدْر » وقد نزلت قريش بجيشها اللَّجِب عند العُدوَة القُصْوَى من الوادى ، مُسَلَّحة بكبريائها وبأسها .

وخرج المسلمون مع رسول الله وعِدَّتُهم يومئذ ثلثمائة لا يملكون من سلاح المقاومة إلا نَزْراً يسيراً .

ويلتقى الجمعان ، وتتلظّى أرض المعركة فجأة . .

ورسول الله جالس فى عريشهِ ، حيث توسَّل إليه أصحابه ألاَّ يُغادر خيمته مهما تَدُرْ رحَى الحرب ، وأبو بكر معه . .

بصُرَ الرسول بالمعركة المُحتدمة الحافلة ، ورأى أصحابه وهم قليلون ، يكادون يذوبون وسط الخِضَمِّ الوثنى المجنون . !

وكلما رأى شهيداً يسقط ، طار معه قلبه حناناً وأسى . .

وبلغ القتال ذروته الفاصلة ، ولم يعد يُسمع إلا صليل سيوف متوهجة تعزف لحن الموت والدم . . . وأحسَّ الرسول أن كل مُقدَّرات الدين قد صارت فى الكِفَّة المرجوحة ، لا الكفّة الراجحة .

وخرج من خيمته باسطاً إلى السماء ذراعيه ، مِثل شِرَاعَىْ سفينة دهمها موج عنيد عتيد . . ! !

وراح يُناجى ربه فى ابتهالات عالية :

« اللهم إنْ تَهلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلَن تُعبد فى الأرض . .

« اللهم أنجزْ لى ما وَعدْتنى . . . »

وتوالت ابتهالاته . . وبُحَّت نبَراتُه . . وتهدَّجت دعواته ، وسقط رداؤه من فوق مَنكِبه . .

وهنا . . . اقترب أبو بكر فى هدوء فرفع رداء الرسول وأعاده إلى مكانه فوق المنكبين اللتين كانتا آنئذ تحملان أعظم أعباء الحياة . .

وفى كلمات مُتوسِّلَة ، قال أبو بكر :

– يا رسول الله ، كفاك مُناشدتَك ربك ، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وَعدك » . .

لم يكن الرسول فى شك من نصر الله . . فقُبيل المعركة قال لأصحابه :

- « إن الله وعدنى النصر . . » .

وقال لهم : « لكأنى أرى مصارع القوم . . » ! ! !

ولكن مسئوليته المباشرة عن أصحابه وعن الدين الذى يُواجه أول معركة مع خصومه ، عكست على مشاعره حماس المعركة وقلقها . .

* * *

ومن شاء أن يرى إيمان أبى بكر فى أحفل ساعاته . .

مَن شاء أن يرى الإيمان العُلوىَّ الموصولَ بقيُّوم السماوات والأرض . .

فلْيَرَ هذا الإيمان يوم دُعىَ الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورَحَلَ عن الحياة والأحياء . .

يوم تَلفَّت المسلمون فجأة ، فلم يروا بينهم « الأب » الذى كان يملأ حياتهم حناناً ، و« النور » الذى كان يملأ وجودهم ضياء . .

يومئذ تكشَّف جوهر هذا الإيمان .

إيمانُ رجل إلهى ، أعطى الله مَوْثقَه مع محمد ، فإذا اختفى « محمد » بالموت ، فإن هذا الإيمان لا يَضعُف ، بل يتفوَّق . . ولا يَجزع ، بل يَحتشِد . . . ولا يَنُوء تحت وقع الضَّربة ، بل ينهض أيِّداً رشيداً ثابتاً ، ليحمل مسئولياته وتبعاته . . ! !

وهكذا وقف « أبو بكر » أو بتعبير أَحْجَى ، وقف « إيمان » أبى بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان يقدر عليها سواه . . ! !

يومئذ ، وبعد أن صلى بالمسلمين ، عاد الرسول فى حجرته واستأذنه فى أن يغيب عنه بعض الوقت ، وذهب إلى داره بالعالية فى أقصى المدينة .

ومضى وقت ليس بالطويل قضى فيه بعض حاجات أهله .

وإذ هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله إذا النَّاعى يَقطع الأرض إليه وَثْباً ، ويُلقى عليه النبأ الذى يهدّ الجبال .

حَمِد واسْتَرجع ، واختلطت دموعه الهاطلة بكلماته وهو يقول : « إنَّا لله ، وإنا إليه راجعون » . .

وأغذَّ السير رابط الجأش ، قويَّ الجَلَد إلى بيت رسول الله .

لم يكد يقترب من المسجد حتى رأى الفاجعة الكبرى . . لقد فقَدَ المسلمون صوابهم . . ! ! !

حتى ابن الخطاب القوى الراسخ ، وقف بين الناس شاهراً سيفه ، صائحاً :

– « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران . .

« والله لَيرجعن رسولُ الله ، فليقطعن أيدى رجال زعموا أنه مات . .

« ألاَ ، لاَ أسمع أحداً يقول إن رسول الله مات ، إلاَّ فَلقْتُ هامته بسيفى هذا » . . ! !

تلك كانت حال عمر ؛ فكيف كانت حال سواه . . ؟ ؟

لقد كان موت الرسول مفاجأة تامة للمسلمين على الرغم من سابق مَرضه .

كأنهم ما تصوَّرُوا أبداً أن يقال لهم ذات يوم : مات الرسول . . !

فلما أنفذ الله أمره ، واختار لجواره رسوله ، وكُتب على الناس أن يسمعوا فى لُجج من الهول والأَسَى كلمة الموت مقترنة بكلمة الرسول ، طار منهم صوابُهم . .

ولقد كان أبو بكر أحقَّ الناس بأكبر قدر من الأسى ، والذهول . .

فهو « صَدِيق » العمر لمحمد منذ طفولة الحياة وشبابها . . وهو « صدِّيقُه » منذ أول أيام الوحي والدين . . وهو قد أحبَّه حبًّا ، وآخاه مُؤاخاة تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البَشر .

لكن أبا بكر كان يبدو وكأنَّه لا تحركه طاقات بشرية ، بل طاقة إلهية حَلَّتْ فيه . . ! !

ولْندَع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصَّدْمة الأولى :

« أقبل أبو بكر ، يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مُسَجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حِبَرَة . فكشف عن وجهه ، ثم قَبَّله وقال :

« بأَبي أنتَ وأمي ، طِبْتَ حيًّا وميتاً — إن الموتَة التي كتبها الله عليك قدْ مِتَّها . .

« ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول . .

« ثم خرج ، وعمر يكلم الناس فدعاه للسكوت ، فأبى عمر إلا أن يسترسل في قوله . .

« فلما رآه أبو بكر لا يُنصت . أقبل على الناس يكلمهم . .

« فلما سمعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس .

« من كان يعبد « محمداً » ، فإن « محمداً » قد مات . .

« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حيٌّ لا يموت . .

« ثم تلا هذه الآية :

[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . . ؟

- وَمَن ينقلِبْ علَى عَقِبَيْهِ فلَن يضُرَّ اللهَ شيئاً . .

- وسيَجْزِى اللهُ الشاكرين] . .

« فوالله لكأَن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة . .

« أما عمر ، فقد وقع على الأرض ، حين علم من كلمات أبى بكر أنه الموت حقًّا » . . ! !

* * *

أفى هذه اللحظات الذاهلة ، والفاجعة المزلزِلة يكون مثلُ هذا الثبات . . ؟

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات » .

« ومَن كان يعبُد الله ، فإن الله حَى لا يموت » . . ؟ ؟

إن أقصى ما كان يُنتظر أن يُفيئه الجَلَدُ والسَّكينة ، كلمات توصى بالصبر وتمنح العزَاء .

ولكن البديهة المؤمنة التى تشبه عين الصَّقْر ، وقعت فى أقلّ من لَمح البصر على كلمة السِّر التى سترُدُّ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وَعى قدير يستقبل تبعاته الجِسام ويعبرُ أزْمة الموت بسلام . . ! ! !

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة :

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات . . .

« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حىٌّ لا يموت » .

الله حى لا يموت . . ؟ ؟

إذن يا خيل الله اركبى . .

ويارايةُ الله ارتفعى . .

ويا حَمَلَة هذه الراية ، قوموا . . انهضوا . . وَاصِلُوا رحلة الشمس

المشرقة ، والدين الجديد . . ! !

ولقد فعلت صَيْحة أبى بكر فى نفوسهم فعل القدَر ، فقاموا إلى الجسد الكريم المُسَجَّى . وأدَّوْا له تحية الوداع ممزوجة بالعزم الأَيِّد الذى سيستقبلون به تبعات الساعة التالية . . ! !

* * *

عندما نستعرض هذه المشاهد التى تَجلَّى خلالها إيمان أبى بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية .

هو :

ماذا ، لو لم يكن هناك أبوبكر . . ؟ ؟

وسيتألق هذا السؤال ، ويَفرض نفسه بصورة آكدَ وأوضح عندما نعيش عمًّا قريب مع أبى بكر فى يومين عظيمين – يوم السَّقيفة ، ويوم الرِّدَّة . .

إن الأمر ليبدُو كَمَا لَو كان الله سبحانه حين اصطفى « محمداً » عليه السلام ليكون رسوله إلى الناس ، اجْتَبَىَ معه فى اللحظة نفسها . « أبا بكر » رضى الله عنه ليكمِّل دورَ الرسول . .

وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة تتلقى عنهم ومن سيرَهم فنَّ الإيمان ، فإنها واجدة على رأس تلك القِلَّة النادرة الباهرة ، رجُلَ الإسلام الكبير . . « أبا بكر الصديق » . .

ولقد عشنا لحظَات مع إيمانه ، فلْنَرَ مع الصفحات المقبلة ، كيف حَمل هذا المؤمن مسئوليات ذلك الإيمان ، وكيف وهَب حياته لتبعاته فى تواضُع مُطلَق ، وسُمُوّ بَعيد . .